معارك نقدية ...

أدب واحد فحسب : أدب للتمرد !

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

« اتوجه بشكري للدكتور سهيل ادريس الذي سيتيح لي ، على صفحات « الآداب » التي فيها نشأت ، ان اساهم بشكل منتظم في حركة النقد الفكرية وتقييم بعض الاعمال الثقافيه التي تصدر في الوطن العربي اثارة للمشكلات وايماء بالحلول وتتويجا للانسان وتمجيدا ..

ولقد سبق لي على صفحات « الآداب » منذ حوالي عشر سنوات ان نشرت (منديل وداع من مسافر) سجلت فيه عقم وزيف وادعائية الادباء وتكالبهم على جمع المال وافقار الفكر ، واعلنت ساعتها يأسي وانني سأكف عن الكتابة عشر سنوات اتسلح فيها بالثقافة ثم اعود .. كانت هذه اندفاعة الشباب فقد كان عمري آنذاك خمسة وعشرين عاما ، ولم اكن ساعتها ادرك ان الحل ليس في التوقف حتى من أجل التسلح بالثقافة الاكاديمية الجادة .. وحقا انني لم انقطع تماما ناقضا وعدي اذ ان جدب الواقع الفكري كان يدفعني من حين الى حين ان اعود للكتابة مدافعا عن حق فكري ضائع وارساء لقيم ادبية محاطة باسلحة الخطر والتقويض .

وليس لهذا الباب من هدف سوى ابراز قيم سوية ظهرت وتطهير ارض من قيم مريضة استشرت طوال عقدين من السنين » .

لقد تراكمت في العشرين سنة الماضية ظواهر فكرية مرضية طفت على الجوانب السوية فيها .. وبعد كل محاولات النقد السابقة في مجال الشعر من الخروج من فلك تقسيم الى شعر : مدح وهجاء ورثاء وغزل وفخر الخ اصبح الشعر الآن في رأي النقاد ينقسم الى : شعر مقاومة ولا مقاومة ـ وكأننا في حركتنا النقدية قد سرنا الى الوراء ..! ففي شرقنا العربي تتصاعد الآن دعوة الى انشاء ادب للمقاومة ، فبعد الدعوة في الخمسينات الى انشاء ادب اجتماعي ، تأتي السبعينات بهذه الصيحة الجديدة التي تكشف عن قصور في ادراك طبيعة الادب ووظيفته .. وبهذا ستكون لدينا ثلاثة انواع للادب .. والغريب في الامر ان الدعوة الجديدة تأتي من ادباء شبان مفروض فيهم الوعي والنضج الفكري ، وهذه الدعوة تعم شرقنا العربي كله وتمتد من ادب المقاومة في فلسطين المحتلة الى التهليل الساذج لاعمال سميح القاسم ومحمود درويش حتى ان الاخير فد مج هذا التهليل .. فهل هي دعوة صحية كما تبدو في الظاهر حيث انها مشاركة في المعركة الدائرة ضد العدو ؟ ام انها في اعماقها ـ اذا ما دققنا النظر ـ دعوة تقوض الفكر والادب والواقع على السواء ؟ جواب هذا لن يكون الا اذا عرفنا طبيعة الادب ووظيفته ..

يقول البير كامو في كتابه (الانسان المتمرد) : « الفن نشاط يؤكد وينفي في الوقت نفسه » ونتيشة يقول : (لا يوجد فنان يطيق الواقع) وهذا حق ، غير انه لا يوجد فنان يستطيع ان يتجاهل الواقع . ان الخلق الفني هو مطلب للوحدة ورفض للعالم . لكنه يرفض العالم على اساس ما ينقصه وباسم ما يكون عليه احيانا . ويمكن ان تلاحظ التمرد هنا في أنقى حالاته وفي تعقداته الاصيلة . ومن ثم فعلى الفن ان يعطينا منظورا نهائيا على اساس من التمرد » .

الفن في جوهره عملية رفض للواقع او بمعنى ادق عملية رفض لنقص في الواقع او تشوه فيه .. والفنان بحكم انه (مفكر) يتميز عن الرجل العادي في ادراكه لجوانب النقص في الواقع ، ومن ثم يتمرد على هذا الواقع ويبث مفهوما يكمل نواقصه داخل عمله الفني ، وبعد الخلق يتمرد الفنان من جديد ، يعلو على ذاته ، وقد يعلو على ما سبق ان بثه في عمله الفني .. ولكن تمرده هذا من اجل ماذا ؟ من اجل الجوهري .. ان الفنان ـ باعتباره مفكرا ـ ينقي الحياة من شوائبها ، ينقيها مما هو عرضي وصولا الى الجوهري ، وصولا الى المطلق الذي يعلو على نطاق عصره وبلده مخاطبا العالم اجمع .. انه ينطلق من زمانه حقا ، ومن بلده حقا ، ولكن ليعلو عليهما وصولا الى قلب البشرية ، وفي هذا يكمن خلود العمل الفني .. ان « لؤلؤة » شتينبك امريكية صرف ، وعن مجتمع مستغل بعينه : صياد للؤلؤ يجد اكبر لؤلؤة في البحر ، يريد ان يبيعها ليغير حياته ويبني متاجر لتغيير حياة البلدة ، يحاول بيعها في حوانيت شراء اللؤلؤ لكنها جميعا حددت لها سعرا منخفضا لان جميع الحوانيت يملكها شخص واحد ، فيقرر الصياد السفر الى بلدة اخرى ليبيعها بسعر مرتفع ، فيتبعه التاجر في الجبال ويقتل له ابنه ، فيعتبر الصياد اللؤلؤة رمزا للشر ، ويقذف بهذا الشر الى البحر حيث كان من قبل .. انها تعلو على الجو الامريكي والاستغلال الامريكي لترفع عمق المقاومة لجميع اشكال القهر ، بل برغم النهاية الاسيانة فان الذي قذف به الصياد للبحر هو الشر لا الخير الذي كان ينتظره منها ..

ان الرواية هنا رواية مقاومة بالمفهوم الاوسع للمقاومة ، بمعنى التمرد نجيبا في الحياة الاجمل .. فالمقاومة في العمل الفني ليست مجرد حمل بندقية في قصة ، او سنقتلك ايها العدو الجبان في قصيدة .. وتصل بهذا لا الى ادب دعائي ، بل ستضل الى دعاية بدون

ادب ، لا تكشف عن جوهري ، ولا تضيف بعدا جديدا ، ذلك اننا في زمن الحرب فلنكف عن الابداع ولنحمل السلاح ، فالابداع ادراك لجوهر الاشياء ، وهي عملية تقتضي فسحة من الوقت ، وهي عملية تقتضي تأملا لا تتيحة ولا تطيقه فترة الحرب .. ثم انه لا يوجد فن عن الحرب، ذلك ان الفن دائما هو فن عن السلاح ، لا يوجد فن عن الحرب حتى لو كانت حربا شريفة ضد عدو غادر لان الفنان سيلجأ الى المباشر من اجل شرف المعركة فيسقط في الخطابية التي لن تخدم شيئا .. ان التأمل يعطي الفنان رحابة اكبر لا في فهم الحياة فهما اعمق فحسب ، بل في اكسابه خصائص فنية اعمق واخصب . وربما كان هذا ما ادركه شاعر مثل محمود درويش ، فهو في ديوانه « عاشق من فلسطين » لا يتحدث عن بلده حديثا مباشرا ، بل انه يخاطب شخصا قد يكون حبيبته وقد يكون بلدته على غرار شعراء التصوف الذين تقرأ اشعارهم على انها اشعار في الحب الارضي او الحب الالهي .. ويتجسد فكره في دعوته نوحا الا يبني سفينة يرحل بها لينقذ البشر ، بل يدعوه الى ان ينقذهم من غير ابحار ، في الارض نفسها التي يعيش عليها .. وهو بهذا يتجاوز وطنه فلسطين ، ويتجاوز بفكره حدود النضال بالبندقية ، ذلك ان العمل اليومي الجزئي هو عمل السياسي ، اما عمل الفنان فانه يكمن في نطاق آخر يعلو فيه على اليومي والجزئي معا توصلا الى (المطلق) .. ليس الفن تعبيراً عن الواقع ، بل الفن هو على نحو ما قاله اندريه مالرو : « انه اسلوبنا البشري في خلق عالم يكون غريبا عن الواقع » .. ان شك هاملت شك دنيوي له جذوره الاجتماعية والنفسية ، لكنه بالصورة التي بلغت حد الجنون والنبوة كما صوره شيكسبير جنون غريب على الواقع ، لكنه ليس بعيدا عن الواقع محققا بهذا قول ارسطو : ان الفن تعبير عن المستحيل الممكن ..

يقول لنا ارنست فيشر في كتابه (ضرورية الفن) : « الفن لدى الفنان هو عملية واعية (عقلية) فائقة في نهايتها يبزغ الفن على انه واقع تحت السيطرة عليه ، وهو ليس على الاطلاق حالة من الالهام » .. عملية (عقلية) .. هذا هو ما ينساه ادباؤنا .. انهم ينطلقون من المشاعر والاحاسيس الفجة التلقائية دون ان يهذبها فكر سواء بالنسبة للفكرة المبثوثة في العمل الفني وسواء في الصياغات الابداعية التي تشكل هذه الفكرة .. وتأتي الصيحة : فليكن لدينا ادب عن المقاومة فالعدو على الابواب والنكسة تلاحقنا .. وكأن الاديب واقف ليرصد فحسب ، مع ان الاديب الحق هو الذي يسبق فترة الازمات ، ويكون لديه ارهاص عميق بها كما فعل عبد الرحمن الشرقاوي بعمله النبوئي « الفتى مهران » الذي لم يكن مناقشة عن حرب اليمن ، بل كان تناولا لفكرة حجب الحقيقة ، ذلك لان الفنان يعلو على نطاق الاحداث الجزئية والمحلية ليخاطب البشرية كلها على مدى العصور ..

ولكن الا يوجد او الا يمكن ان يوجد ادب عن المعركة المباشرة ؟ الا يوجد ادب عن الحرب العالمية الثانية ؟ الا يوجد ادب عن المقاومة الفرنسية مثلا اثناء الاحتلال النازي لفرنسا ؟ لا شك ان المقاومة تشكل جانبا من جوانب الواقع ، فاذا اراد الاديب ان يتناولها ـ ووظيفته اساسا البحث عن الجوهري استنادا الى العقل ـ فعليه ان ينحي المعركة المباشرة ، ويبحث عن المعركة الابعد ، معركة الحياة التي ليست المعركة المباشرة سوى مظهر لها وتجسيد .. والا فستكون لدينا دعاية ، لا ادب ، سيكون لدينا قصور فكري كما يتضح في قصائد نزار قباني مثلا عن النكسة ومنظمة فتح ..

لن تكون هناك سوى بضع صور حلوة فحسب داخل عمل سيطرت عليه المشاعر لا العقل ، ووقوف عند حدود الرصد السطحي ، ولم يتعمق الشاعر شيئا ، وكل ما شاهده هو انهيار الجيل وان الامل في جيل الاطفال القادم .. فكيف يكون الامل في جيل الاطفال القادم وهم ابناء هذا الجيل الذي وصفه الشاعر بالعقم والعطب ؟ لا جواب .. لان بالقصائد لم تقم على العقل ، لم تبحث عن الجوهري ، انحصرت في المباشر ، رضعت من ثدي الاحاسيس فحسب ، ولم تتصاعد قصيدة « فتح » الى مستوى البطولة الحقة التي تقوم بها المنظمة بالفعل .. لن تجد سوى اننا انتظرنا ابطال هذه المنظمة بعد يأس وانهم يولدون في عيوننا .. ثم ماذا ؟ لا فكر ، وبالتالي لا فن .. لان الشاعر وقف عند حدود المباشر ، وهو وقوف بلا نجنيح .. ظل حبيس التكتيك اليومي مع ان الفن ـ شأنه في هذا شأن كل الاشكال الاخرى للفكر والاختلاف في طريقة التعبير ـ هو (استراتيجية) الانسانية .. انه تأكيد للجوهري والضروري وتنحية للعرضي والثانوي ، وتمجيد للعقل الانساني ليلتحم العقل بالعقول الاخرى فكما يقول سارتر : « ان احد الدوافع الرئيسية للخلق الفني هو بالتأكيد الحاجة الى شعورنا بأننا جوهريون في علاقتنا بالعالم » .. ومن ثم لن يكون هناك ادب واقعي وادب غير واقعي ، لن يكون هناك الا واقع منظور اليه نظرة خاصة ، فعلى حد قول كامو : « الفنان يعيد تشييد العالم وفق خطته » .. لن يكون هناك ادب وادب مقاومة ، بل سيكون هناك ادب واحد فحسب جوهره التمرد ارساء للعقل وارساء للحرية التي تتمشى مع منطق العقل .. والانسان بعقله، لا بمشاعره ، يريد ان يقهر الطبيعة والواقع، بل ويقهر نفسه ان كان في هذا القهر تمجيد له ، كما يتمثل بصفة خاصة في الفكر الوجودي الذي يعد ذروة للعقل الانساني وهو يدلل على عقم العقل بالعقل نفسه كما عند هيدجر وباسيرز بصفة خاصة ..

فاذا ما استطاع العقل ان يقهر الطبيعة والعالم ونفسه تمجيدا للعنصر العقلي الانساني ، يتحقق ذلك المفهوم عن الفن القائل بانه اسمى درجة من درجات الفرح يمكن ان يهبها الانسان لنفسه لان الفن ذروة من ذرى العقل وهو يمارس حريته ..

ان الاديب اذا ما سقط في اسر النظرة الاجتماعية وحدها ، واذا ما سقط في شرك النظرة السياسية وحدها ، يكون قد قوض فنه .. لا يعني هذا الا تنعكس في عمل الاديب نظرة سياسية وبعد اجتماعي ، بل بمعنى ان الذي سينعكس فلسفة سياسية لا سياسات جزئية يومية وقتية ، والذي سينعكس موقف فكري ابعد من مجرد النظر الاجتماعي الهامشي او القائم على تنظير مسبق وفق آخرين .. على ان يتم كل هذا من داخل عقل الفنان نفسه ، ليقم هو بتحديد موقفه وفق منظوره الخاص .. ليكن مهندسا للنفس الانسانية على ان يكون هو نفسه مهندس نفسه .. ليرتفع عن نطاق الاحداث اليومية الجزئية الى المطلق والا جاء فنه قاصرا على مجرد تسجيل بطولة شهيد مات او بيت هدم في بور توفيق كما هو مشاهد في الشعر المنشور في الفترة الاخيرة ، او يصبح المسرح مجرد مسرح سياسي قاصر على خطب دعائية عن جيفارا الذي مات او النواح الذي يهتف نادبا .. بلدي يا بلدي او نطلق المسدسات الجوفاء على الناس جميعا ونحن في عنبر لؤلؤ .. فالفكر الانساني في الادب العظيم يريد ان يرتفع الى عدل الزير سالم، وسقوط الراهب المأساوي وصرخة مهران دفاعا عن الحق المحتجب ، وذلك لان الادب مدافع عن الانسان ، ان الانسان انما يحمل مسدسه ويطلقه دفاعا عن الانسان الجدير بالحياة ، اما ادب البطولة الزائفة والدعاوى الضبابية فان اصحابها يحملون المسدسات حقا ، ويطلقونها حقا ، ولكن على هذا الانسان الذي يزعمون انهم يدافعون عنه ..

انه خطر لا يهدد الفن فحسب ، بل يهدد الفكر ايضا وبالتالي يهدد الانسان ان يعيش احادي الجانب بالبعد السياسي وحده ، ذلك انه . بجانب الاهتمام السياسي المطلوب حقا ، فاننا ناكل ونحب ونقتل ونحلم .. فلماذا هذا الرصد فحسب للجانب السياسي وحده ؟ لماذا نتزلق الى بعد واحد من ابعاد الانسان ؟ ان الفنان بانحصاره فحسب في البعد السياسي انما يزيد من اغتراب الانسان عن نفسه بدل ان يرفع عنه هذا الاغتراب .. بل سيغترب الفنان هو الاخر ، وما سبيل

لانقاذ نفسه وانقاذ الآخرين سوى العقل الـذي هـو فعل الحرية ، فالحرية ليست سوى العقل وهو يمارس نشاطه .. يقول لنا غارودي في كتابه (ماركسية القرن العشرين) : « ان ماركس يتبنى فكـرة هيغل الرئيسية القائلة بأن الانسان هو خلق الانسان خلقا مستمرا للانسان ، ولكنه يختلف مع نيتشه وهيغل في انه لا يرى هذا الفعل الخلاق على الصورة المجردة المغتربة ، صورة الخلق الفكـري ، خلـق المفاهيم ، ولا على الصورة الفردية الرومانسية صورة الخلـق المتوحد الاعتباطي . ففعل الانسان الخلاق في منظور ماركس المادي هو العمل الحسي » .. ان هذا لفهم قاصر لفلسفة هيغل ، ذلك ان هيغل لا يفهم بالعقل مجـرد حركة ذاتية للفكر ، بل انه يفهم العقل على انه العقل وهو فـي حالة معانقـة للعالم وصولا الى مـا اسماه هيغل بالفحوى ، وهو نفاذ العقلي في الواقعي ومعانقته .. لكن الواقعي ليس هو السياسة فحسب، ليس هو التشابكات الاجتماعية فحسب ، ليس هو الانسان معـزولا فحسب ، ليس هو التاريخ الوقتي فحسب ، ليس هو تاريخ لامة واحدة فحسب، بل الواقعي هو الواقع الانساني في كل تحركه التاريخي وعبر الانسانية كلها استنادا للعقل ودفعا للعقل ، على اساس ان العقل ليس شيئـا معطى ، بل هـو يتكـون ايضا .. فالتفكير محاولة لايجاد علاقات جديـدة بين الاشياء ، أو اكتشاف علاقات جديدة كانت تحت السطح .. وهـذا هو الجوهري الذي يبحث عنه العقل ، هذا هو المطلق الذي يسعى اليه .. وقد يصل بعض المفكرين او الفنانين وصولا خطأ ، قد يصلون الـى مطلق خطأ ، فليكن .. لتتصارع العقول من جديد ، ولتكف السياسة عن ان تتدخل في صراع هذه العقول ، فالعقل مع تصادماته بغيره مـن العقول سيحاول الوصول الى مطلق اعمق ..

يذكر لنا هنري لوفيفر فـي كتابه « مساهمات فـي الفلسفة الجمالية :) انما منشأ اشكال الفن الحواس .وهـذا يبـدو بدهيا .. فالماركسية في هذا الصدد ـ شأنها في جميع الحقول ـ تلتـزم الحس السليم » .. ان هذا القول اما انه يكشف عن ماركسية زائفـة مشوهة لدى لوفيفر ، او يكشف عن قصور الماركسية فلسفيا في ادراك ابعـاد الابداع الفني ، فالفن معرفة ، والمعرفة الحقة ليست هـي التي تتم انطلاقا من الحواس ، او التي تتوقف عند هذا ، وليست هـي التـي تتوقف عند حدود الحس السليم .. ان منشأ اشكال الفن هو العقـل الذي يعيد تشكيل العالم وفق منظور فكري .. لكن الفن عندما يعبـر لا يعبر عن طريق المفاهيم والتصورات ، بل عن طريق الصور .. وبهذا نستطيع ان نفهم عبارة الناقد الروسي الشهير بلنسل : « الفن (تفكير) بالصور » .

بل اننا بهذا المنطلق نستطيع ان نعيد كتابة تاريخ حركة الفـن والادب ، وساعتها سنرى كم هو مقتضب هذا التاريخ الذي دخله الكثير الكثير ما دام المنظور سابقا في التاريخ هو ان الفن تعبير عن الشعور..

واذا نحن ادركنا مكانة العقل في العمل الفني ، فانه سيقودنا الى تقنيات اخصب مما يقودنا اليه الانطلاق من الحواس والمشاعر المباشرة .. فالعقل وهو يبحث عن الجوهري ، يبحث في الواقع عن قهر الواقع تثبيتا لعظمة العقل ، تثبيتا للحرية .. ومن هنا سيهتم العقل بأن يبحث عن اخصب وانجح الوسائل الفنية حتى يتوفر للفن اللعب الحر خـلال عملية الابداع .. يقول فيشر : « اللعب الحر للفن هو نتيجة السيطرة » .. وربما يتضح هذا جليا في معظم شعرنا المعاصر الذي لا يستند الـى العقل في عملية الابداع بحجة قديمة هي ان الشعر هو الشعور ..

فاذا اردنا ان ننتج ادبا يدافع عن المعركة وشرفها ، علينا في الفن ان نبتعد عن المعركة المباشرة ، واذا اردنا ان نعبر عـن عمق المقاومة ، فليكن مفهوم المقاومة في العمل الفني بمعنى التمرد والتجدد المستمـر وخلق الذات بالذات خلقـا جديدا .. واذا اردنا ان نعبر عن ادب فيه الجزئي والواقعي والحسي ، ليكن فيه المطلق والمجنح والعقل .. هـذا متناقض ، لكنه حق ، بالحق نفسه الموجود في قولة آلاب ترتليان فـي القرن الثالث الميلادي : « انني اؤمن ببعث المسيح لان هذا محال » .

القاهـرة

مجاهد عبد المنعم مجاهد

متى يطلع الفجر يا رفيق ؟

قصة الثورة الروسية

بقلم جان بول اوليفيه

ترجمة جورج طرابيشي

صدر حديثا عن دار الاداب

٧٠٠ ق . ل .